العلامة
الشيخ أحمد محمد سوركتي

المسائل الثلاث

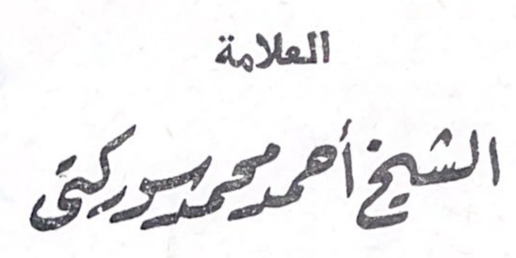
المسألة الأولى :
الاجتهـاد والتقليـد
المسألة الثانية :
السنة والبدعة
المسألة الثالثة :
زيارة القبور والتوسل والشفاعة

راجع الكتاب وقدم له
محمد عبد الله السمان

دار الاعتصام



العلامة





المسائل الثلاث

المسألة الأولى :

الاجتهاد والتقليد

المسألة الثانية :

السنة والبدعة

المسألة الثالثة :

زيارة القبور والتوسل والشفاعة

راجع الكتاب وقدم له

محمد عبد الله السمان

دار الاعتصام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ



تقديم

بقلم : الاستاذ محمد عبد الله السمان

● المؤلف هو احد كبار علماء الدين السلفيين الذين لهم اثر كبير فى نشر عقيدة السلف فى جاوة بصفة خاصة ، والدعوة الى الله بصفة عامة ، ويعتبر المؤلف العـــلامة صاحب مدرسة اسلامية كبرى تتلمذ اليها العديد من الشباب المسلم المستنير .. ولا تزال هذه المدرسة الاسلامية الكبرى تؤدى رسالتها على اكمل وجه .

● والمسائل الثلاث التى تعرض لها المؤلف فى رسالته هذه ، وهى : الاجتهاد والتقليد ، السنة والبدعة ، ثم زيارة القبور والتوسل بالانبياء والصالحين .. وثيقة الصـــلة بالعقيدة الاسلامية ، وقد تعرضت ــ منذ قرون مضت لكثير من الجدل ، بسبب تخلف عقليات تنتمى الى العلم ، طاب لها أن تتقبل فى دين الله ماليس منه ، متجاهلة حديث رسول الله ــ

صلوات الله وسلامه عليه — كما روى فى الصحيحين عن عائشة ام المؤمنين — رضى الله عنها — ((من احدث فى امرنا هذا ماليس منه فهورد)) .

● وكانت مهمة المؤلف العلامة الشيخ احمد محمد سوركتى ان يبين — فى شجاعة وفقه اصيل وسعة افق — راى الاسلام الصحيح ، المستمد من كتاب الله تعالى ، وحديث رسوله الصحيح ، واعمال اصحابه وعلماء السلف ، ولم يثن العلامة المؤلف عن ابداء راى الاسلام الصحيح فى هذه المسائل الثلاث ، ما سوف يتعرض له من متاعب نفسية وغير نفسية — وقد حدث — بسبب وجود جبهة رافضة فى جاوة ، للاسلام الذى رضيه الله لعباده دينا ، وراضية بان تعيش الخرافات والاباطيل تحملها الاسلام وتحمل الاسلام عليها .. ومادام لهذه الجبهة الرافضة مال وسلطان ونفوذ ، فمن حقها ان تعتنق اسلاما جديدا زائفا لايمت الى الاسلام الاصيل بادنى صلة ..

● لقد قرات بامعان رسالة العلامة المؤلف فى هـذه المسائل الثلاث ، فوجدت فيه العالم الواسع الاطلاع ، والفقيه المدقق ، والمفكر الواسع الأفق ، وقد احسنت جمعية الاصلاح والارشاد بسورا بايا ، حين قامت بطبعها منذ اكثر من نصف قرن ، وجمعية الاصلاح والارشاد هى التى يقوم على عاتقها نشر عقيدة السلف ، وبالرغم مما تعانيـة من

عنت الجاهلية المصرة على جاهليتها ، فانها قائمة على قدم وساق منذ انشائها فى عام ١٩١٤ م ، وقد كان العلامة المؤلف احد مؤسسيها والقائم بادارة التعليم فى مدرستها ..

والحق ان رسالة المؤلف يعتبر نشرها ضرورة ملحة ، وتعميمها فى سائر بلاد المسلمين اكثر الحـــاحا ، فالعقيدة السلفية تعانى ماتعانى فى كل مكان ..

محمد عبد الله السمان

القاهرة : ص . ب : ١٦٢١

* * *

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

اما بعد فقد اتفق أن حضرة الشيخ على الطيب نشر منشورا فى شهر جمادى الاولى او الثانية فى بلده باندوغ باللغة الماليزية والعربية يطلب فيه المناظرة معنا فى بعض المسائل الدينية التى زعم أننا حدنا فيها عن طريق الصواب وهذا نص منشوره :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادى الى الصرط المستقيم . المبين طريق الرشد من الغى على لسان الصادق الامين ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ـ وبعد : فان الدين النصيحة لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم . فلذلك نخبر جميع اخـــواننا

المسلمين القاطنين بجزيرة جاوا بأن الشيخ أحمد السوركتى ليس هو من العلماء العارفين بالشريعة المحمدية وبأسرارها . ولم يكن من فرسان هذا الميدان حتى يعتمد على قوله فى بيان السنة من البدعة ، ويترك قول الخلفاء الراشدين ، والائمة المجتهدين ، والعلماء الراسخين ، بل انما يريد الظهور وأن يجعل له حزبا بسبب التفريق بين الجاويين ، كما فرق بين العرب . وانى مستعد لمناظرته وبيان حقيقة أمره بحضرة — على الأقل — أربعة نفر من العلماء العارفين باللغة العربية بشرط أن أسأله قبل المناظرة عن مسائل بسيطة فى الفقه والحديث والتفسير والأصول والنحو والبلاغة والمنطق . فان أجاب فهناك يكون أهلا للمناظرة وانى مستعد لاثبات كل ما ادعاه بدعة ضلالة بالأدلة الواضحة من نص القرآن العظيم ، ومن صحيح البخارى ومسلم ومن كتاب الأم ومن المهذب الذى ادعى أن فيه حجة له ، وعند صليل السيف يصدق الابتلاء وبالله التوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل على كل ملحد فى الدين مفرق لجماعة المسلمين .

على الطيب

المتحصل على شهادة العالمية من الأزهر

وأمين فتوى الشافعية بالمدينة

وقد عنى بذلك جمعية الاتحاد الاسلامى المقامة فى باندوغ وعينوا يوما للمناظرة — أى يوم ٢٥ جنوارى سنة ١٩٢٥ م — وكتبوا الى بالطلب كما كتبوا اليه بذلك فتكلفنا لاجابة الطلب وتوجهنا الى باندوغ فى اليوم المذكور ، وبعد اجتماع الناس ووصولى اليها اطلعت على اعلان أرسله الشيخ على الطيب من سورابايا يعتذر فيه عن عدم حضوره

فى ذلك المجلس ، وبعد يومين رجعت الى مقرى ببتاوى ، وكتبت هذا الجواب المنقول تحت هذا السياق ، وهذا نص الجـواب :

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده وعلى آله وصحبه ، أعلن الشيخ على الطيب الشامى بهذا المنشور باللغتين العربية والماليزية وقد أساء فيه من جميع الوجـوه ومثـل فيه نفسه أقبـح تمثيل . أما كونه يريد أن يمتحنا قبل المناظرة فى العلوم التى ذكرها هو فانا نراه أقل درجـة من ذلك المركز الذى وضـع فيـه نفسـه ، وقوله هـذا دليـل واضـح على رغبتـه فى الهـروب من ميـدان المناظرة التى قـدم نفسه اليهـا كما هو ظاهر لكل ذى سـمع وبصر . كيف يقول الشـيخ على الطيب : انه يريد أن يسأل غـيره أولا بغـير أن يسأل هو ثم يناظر بعد ذلك ؟ ولماذا لا يقدم نفسه أولا لأن نسأله نحن فى تلك العلوم حتى نعلم أنه مستعد لمناظرتنا أم لا قبـل كل شىء فلا شك أن هذا الكلام كلام من أخذ الخور والجبن بمجامع قلبه واخذ يسحب نفسه من ميدان المناظرة بغير نظام واما قوله : ان الشيخ أحمد سوركتى ليس أهلا لان يترك قول الخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين والعلماء الراسخين لاجل كلامه ، فقد صدق فيه ولكنى بحمد الله تعالى لم أكن مخالفا لقول الخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين ، ولا فى مسـألة واحدة . ومن ادعى ذلك علينا فهو كاذب . واننا نطالب المدعى بالبينة والا فليستعد للعنة الله التى جعلها للكاذبين . وأما كوننا نريد بعملنا الظهور وأن يكون لنا حزب بسبب التفريق بين الجاويين كما فرقنا على زعمه بين العرب ، فتلك من خبايا النفوس التى لا اطلاع لاحد عليها وحسابنا فيه على الله وانما

الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى . وما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم . وأما كونه مستعدا لاثبات كل ما ادعيناه بدعة ضلالة بالادلة الواضحة الى آخرة فاننا نشكره على ذلك ان صدق ، ولا نظنه يصدق واننا بكل الحاح نطلب منه ان يبين لنا قبل كل شىء المسائل التى يريد فيها المناظرة أو البيان على صفحات الجرائد العربية لنستبين وجوه الحق فيها على حسب قوانين المناظرات الجارية بين جميع علماء الدنيا من المتقدمين والمتأخرين ، لان القول فى دين الله بدون تثبت وفحص من كبائر الاثم ، ولان المقصود انما هو بيان الحق لا المخاصمة والمماراة . ثم بعد ذلك يعين وقتا ومحلا للمناظرة يوما او اياما ثم يعين الرجال المميزين من الجهتين مع الكتاب الذين يضبطون كل مايصــدر من الفريقين وتكون المناظرة كتابية فى ذات المجلس المعين ليحق الحق ويبطل الباطل ، ويعرف كلواحد مقدار نفسه ، هذا هو الصواب . وأما ان كان مراد حضرة الشيخ على الطيب هو الاعلان بشهادته الازهرية او الاعلام بكونه كان أمينا لفتوى ليقبل عليه الناس ، فذلك أيضا حسن ولكنه أخطأ طريقه وضل سبيله وتجافى خطة العدل والانصاف .

وليس من الانصاف أن يدفع الفتى

يد النقص عنـــه بانتقاص الأفاضل

ومع ذلك يظهر لى ان حضرة الشيخ على لايزال غافلا عن ان هذا الزمان قد أصبح الناس فيه لايتأثرون بذكر الشهادات والالقاب الفارغة . بل صاروا لا يستلمون حتى الحقائق الراهنة الا بعد الفحص والنظر الطويل ، ولعل الله يريد أن يرفع ذكرنا ويتم نعمته علينا ويعلى على لساننا كلمته العليا بسب مظاهرات الشيخ على الطيب واضرابه والله المستعان .

ونشرت صورته فى الجرائد العربية واستقر ساكنا الى ان سافرت انا الى سورابايا مقره الاخير بطلب اهل جمعية الارشاد لاختبار تلامذة مدرسة الارشاد التى بسورابايا فوصلت الى سورابايا يوم ١٥ شعبان سنة ١٣٤٣ وبعد ان مكثت بها خمسة ايام ارسل الشيخ على الينا كتابا بيد احد الاخوان العلويين وهذا نص كتابه المذكور :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادى الى الصراط المستقيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين . وبعد فانى اعلن الاستاذ الشيخ احمد محمد السوركتى بالحضور فى مسجد عنفيل بعد صلاة العشاء ليلة الثلاثاء الموافق ٢١ شعبان سنة ١٣٤٣ ، لاجل المذاكرة فى ثلاث مسائل :
الاولى فى الكلام على السنة والبدعة وبيان حقيقتهما ،
الثانية فى الكلام على زيارة القبور والتوسل بالانبياء والصالحين
الثالثة فى الكلام على الاجتهاد والتقليد بشرط أن كل واحد منا يتكلم ساعة فلكية على المسائل الثلاث ، من غير ان يعارضه صاحبه او احد الحاضرين فى كلامه ، وبشرط ان يكتب كلا المتناظرين جميع مايريد ان يتكلم به امام الناس فى ورقة لاجل عدم التغيير والتبديل ، ثم بعد الفراغ يعطى كل واحد منا ورقته لصاحب جريدة حضرموت أو غيره لينشر فيطلع عليها عموم الناس ، والقصد من ذلك بيان الحق وجميع مافى هذا الاعلان موافق لما طلبه الشيخ احمد فى جوابه على الاعلان السابق وليس بينى وبينه منافسة ولاعداوة شخصية اصلا بل المقصود بيان الحق وهذا يحصل مع الاخ واخيه والوالد

وولده والله المستعان فى التوفيق للصواب . حرر فى صبح الأحد الموافق ١٩ شعبان سنة ١٣٤٣ هـ .

كتبه الفقير اليه تعالى
على بن عبد الله الطيب

ومضمونه انه يطلب المناظرة معنا فى مسألة الاجتهاد والتقليد ، ومسالة السنة والبدعة ، ومسالة زيارة القبور والتوسل بالانبياء والاولياء والصالحين . فعجبنا كثيرا من كونه لم يعلنا من حين ما طلبنا منه الاعلان ، ولم يعين وقتا كافيا لمراجعة تلك المسائل كما ينبغى ، مع علمه انى دخلت سورابايا ولم اصطحب معى كتابا للمراجعة ، والزمن الذى عينه يوم وليلة فقط ونحن مشغولون فيه باختبار التلاميذ الذى دعينا لاجله ، فأسفت كثيرا لهذه المعاملة ولكنى مع ذلك كله لم يسعنى مخالفته نظرا للوسط والحال وأهمية المقام مع ان اكثر الناس لامونا فى اجابتنا لطلبه قائلين : انه لايريد احقاق حق ولا ابطال باطل بل يريد التشويش فقط فاستعددت لذلك وحضرت فى الوقت المعلوم فى المحل الموعودفيه ، فلم نجد احدا هناك وصلينا العشاء فى المسجد المذكور ، وانتظرنا حتى تفرق الناس ، ولم نواف الشيخ على الطيب ، ولكن لا لوم عليه فى ذلك ، فقد بلغنا بعد ذلك أن الامر قد تداخل فيه رئيس العرب واخر الموعد الى ليلة اخرى ريثما يأخذ الرخصة من الحكومة ومن وكيل المسجد ، ثم بلغنا انهم اخروا المناظرة الى صباح يوم الاربعاء الموافق ٢٢ شعبان ، ثم فى اليوم نفسه جاءنى رجلان الى المنزل الذى انافيه وذهبابى الى منزل احد العلماء المشهورين بسورابايا ، بزعم الزيارة بدون ان يعلمانى بشىء مما يقصدانه

وفى الطريق قابلنا الشيخ على الطيب فاخبره احد الرجلين انهم يقصدون زيارة فلان العالم المشار اليه فذهب معنا الى المنزل المذكور ، وحينما وافينا المنزل المقصود رحب بنا صاحب المنزل وبش فى وجوهنا وبعد ان استقر بنا المقام افتتح الكلام ممهدا بآيات الاصلاح واحاديثه ، وشىء مما جاء فى فضل الساعين فى الصلح والجانحين اليه ، ثم رفع يديه وقرا الفاتحة وامر الحاضرين بالمصافحة فتصافحنا جميعا ثم ذكر الشيخ على الطيب ما كان بينى وبينه من الجوار والصداقة فى ارض الحجاز واقسم انه لم يبلغه منى ايذاء لا بقول ولا بفعل ، لا بمكة ولا بجاوا قط وانه يشهد لى بالنزاهة والمحافظة على الاداب الشخصية تمام المحافظة فقلت له انى مسامح فى جميع حقوقى الشخصية بكل جلاء وصفاء ولكنى اطلب منك كما اطلب من كل من الحاضرين ان تدلونى على ما ترون عندى من الخطأ لارجع الى الصواب ، ان كنتم ترون شيئا من ذلك فشكروا لى ماقلت ووعدنى الشيخ على انه سيرفع الى مايراه من ذلك كتابيا ، ثم قام صاحب المنزل وامرنا بالمسير معه الى بيت رئيس العرب ليقص عليه ما حصل لكونه كان متداخلا فى الأمر ، فلبينا طلبه جميعا وذهبنا الى بيت رئيس العرب فقصوا عليه جميع ما حصل ، فقلت للحاضرين ايضا انى موافق على جميع ماحصل من الصلح ولكنى اطلب بكل الحاح ان يذكر لى الشيخ على وكذلك جميع الحاضرين كل ما يرونه خطأ فيما نسير عليه من الدين لان الصلح لاينبغى ان يؤدى الى كتمان الحق والدين ، لان الله لعن كاتمية فوعد الشيخ على هناك أيضا أنه سيذكر ما يراه من ذلك فى كتاب خاص يرسله الى ، فخرجنا على ذلك ، وبما اننا كنا

كتبنا جوابا عن المسائل الثلاث التى قدمها من قبل ولم نتيسر المناظرة فيها احببنا نشر ماكتبناه لينتفع به الناس ان كان فيه حق او يعرفوا على الاقل مانعتمد عليه من الادلة فينبهونا على ما فيها من الخطأ ، ان كان فيها خطأ . هذا ويما أن الأجوبة كتبت فى وقت ضيق فانا مستعدون بحول الله وقوته لاسعاف من يريد المزيد او التوضيح ان اشكل عليه شىء فيما ادلينا به والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

الفقير الى الله
أحمد محمد سوركتى الأنصارى

بتاوى ٤ رجب ١٣٤٣ هـ
٢٩ جنوارى ١٩٢٥ م

***

المسألة الأولى

الاجتهاد والتقليد

المسألة الأولى :

الاجتهـــاد والتقليد

الاجتهاد فى اللغة : بذل الجهد والوسع فيما فيه كلفة
وفى الاصطلاح : أستنباط الاحكام الشرعية من الادلة الكلية
والقواعد العمومية التفصيلية ، أى القابلة لزيادة التفصيل
أو ترجيح أحـــد الحكمين المنصوص عليهما بوجه من وجوه
الترجيح المعروفة فى الأصول ككون رواته أكثر مع تساويهم
فى صفات العدالة والاعتبار أو علو اسناد الحديث أو كونه قولا
لاحتمال الفعل الاختصاص ، او كونه مشتملا على زيادة او
كونه أفصح أو كونه بلغة قريش أو كونه بعد الهجرة أو كونه
عاما أو ناقلا عن حكم الأصل ، أو كونه خبرا ومعقولا ، أو كونه
موافقا لدليل آخر ، أو لعمل أهل المدينة ، أو كونه أحوط فى
باب الحقوق أو أدرأ فى باب الحدود أو أيسر فى باب التكاليف
والعبادات او اسد للذرائع ، او امنع للضرر ، او ارفع الحرج
وأدعى للقبول فى باب الدعوة الى الدين ، فاذا فهم ذلك علم
أنه لا اجتهاد مع النص الصريح الذى لا معارض له من مثله ،
ولا فيما لا يعلم دخوله تحت قاعدة من قواعد الشرع على فرض
وجوده ، لكون الأول قطعيا ولا اجتهاد فى القطعيات ، ولكون
الثانى غير شرعى لعدم دخوله تحت قاعدة من قواعده ، فالأخذ
بما ثبت عن الله ورسوله والتحاكم الى كتاب الله وسنة رسوله

هو الاسلام لقوله تعالى : ((**فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم**)) . وقوله تعالى : ((**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا**)) . وقوله تعالى : ((**اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء**)) . وقوله تعالى : ((**انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس فيما أراك الله**)) . وقوله تعالى : ((**خذوا ما آتاكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**)) . وقوله تعالى : ((**وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**)) . وقوله تعالى : ((**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**)) .

وأما الاجتهاد فى الدين ــ أى بذل الجهد والتأمل فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتطبيق ما يحدث من الاحكام عليهما ، فهو واجب على كل عاقل يفهم اللغة العربية ، ويفقه مواقع الاحكام لقوله تعالى : ((**فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب**)) واحسنه بمعنى اوفقه لمقتضى الحال والزمان والمكان ، واقواه سندا وبرهانا واقربه الى العقل . ومن المعلوم ان من لم يبذل جهده فى التأمل والتــدبر لا يمكنه أن يميز بين الحسن والأحسن ، قال تعالى : ((**خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون**)) ومن لم يبذل جهده فى التدبر لم يكن آخذا بما فيه بقوة كما امره الله ، ولا ذاكرا ما فيه ، وقال تعالى : ((**كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولو الالباب**)) وهذا صريح بأن الله لم ينزل الكتاب الا لنتدبر ما فيه ، وقال تعالى : ((**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**)) وهذا توبيخ شديد لمن أعرض عن القرآن ولم يتدبر ما فيه ، وقال تعالى : ((**واعتصموا بحبل**

الله جميعا ولا تفرقوا)) ولا يتصور ان يكون الشخص معتصما به ومتمسكا بأحكامه ، وهو لا يعرف ما فيه . وقد امر الله بالرجوع الى كتابه والى سنة رسوله عند الاختلاف والتنازع بقوله تعالى : ((**وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله**)) وبقوله تعالى : ((**فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير واحسن تأويلا**)) ولا يمكننا الرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله الا بعد العلم بهما والتدبر فيما فيهما . وقال تعالى : ((**قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**)) ولا شك أن من لم يعلم ما جاء به الرسول لا يكون داعيا الى الله على بصيرة ، لان البصيرة هي الحجة والبرهان ولا حجة بيد المقلد الاعمى . وقال تعالى : ((**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**)) ولا شك ان من لم يكن بيده الكتاب والميزان لا يكون قائما بالقسط ، وان صادف يوما انه قام بالقسط فهو على غير بصيرة . وقال تعالى : ((**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**)) اى فهل من طالب لمعانيه فيعان عليه . وقال تعالى : ((**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**)) ((**الم يأن الذين آمنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**)) .

وأما كون الانسان يقلد شخصا معينا في جميع أمور دينه بحيث يقدم قوله على ما ثبت له من الكتاب والسنة ، بدعوى انه اعلم من غيره ، او انه محيط بأدلة الدين مع كونه عاقلا يفقه الحجة ومختارا يمكنه تناول الدليل ، فهو ممنوع عقلا وشرعا بنص الكتاب والسنة ، وعلى السن الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين المشهورين ، وقد

اخبر الله بأنهم اضل من الانعام ، لان الانعام لم تعط الاستعداد وهم قد اعطاهم الله الاستعداد ، ولكنهم لم يستخدموا ذلك الاستعداد بل ابوا ان يكونوا الا كالانعام ، قال تعالى فى سورة الاعراف : ((**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**)) .

ان الله سبحانه وبخ الاولين الذين قلدوا فى دينهم آباءهم وائمتهم الاولين واعرضوا عن الاعتصام بالادلة الالهية ، والذين اعتمدوا على ما ورثوه من الآباء والاجداد من الآراء بغير حجة ، وقص الله علينا توبيخهم لنعتبر به ونبتعد عن مثل خطتهم . قال تعالى فى سورة البقرة على سبيل المقت والتشنيع : ((**واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**)) وقال تعالى فى سورة المائدة : ((**واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**)) .

وقال تعالى فى سورة لقمان : ((**واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا اولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير**)) .

وقال تعالى فى سورة الاحزاب : ((**وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا فآتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا**)) وقال تعالى فى سورة الزخرف : ((**وكذلك**

ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » .

« **قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم** » فكل من عارض آية محكمة او سنة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكون تابعا لخطة هؤلاء الذين ذمهم الله فى القرآن ، ومستحقا لما استحقوه من العذاب ، لان جميع الاحكام والعقوبات والثواب والجزاء انما هى تابعة للصفات لا لذوات الأشخاص ، لقوله تعالى : « **ليس بأمانيكم ولا أمانى اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا** » وقال الله تعالى : « **اكفاركم خير من اولئكم ام لكم براءة فى الزبر** » وقال تعالى : « **ام لكم كتاب فيه تدرسون . ان لكم فيه لما تخيرون** » « **سنة الله التى قد خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا** » .

واما السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم : ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من مستمع . ولم يقيد ذلك بزمان ولا مكان . وروى مالك فى الموطأ عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « **تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة رسوله** » .

واما السلف الصالح الذين مدحهم الله فى كتابه بقوله تعالى : « **والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه** » .

ومدحهم الرسول بقوله : « خير القرون قرنى ثم الذين

يلونهم » الى آخر الحديث ، فليس أحد منهم كان يقلد أحدا فى دينـه ، بل كانوا يتعلمون من بعضهم البعض ما جاء عن الله ورسوله من الأحكام المعضدة بالادلة النقلية والعقلية ، ثم يتبعون ما رجح دليله وثبت أصله ، ويبذلون جهدهم فى فهم كتاب الله وسنة رسـوله دون آراء الرجال غير المعصومين بل قد نهوا جميعا عن التقليد الأعمى الذى نحن نسير عليه اليوم ، وبما أن نقل أقوالهم فى ذلك يستوعب مجلدات كثيرة ، فانا نقتصر ها هنـا بالتمثيـل لنقـل بعض أقوالهم لزيادة الاستشهاد لا للاستدلال ، فان الدليل هو ما جاء عن الله ورسوله فقط ليفهم أن المقلدين مخالفون لأوامر أئمتهم الذين هم يدعون تقليدهم ، كما أنهم مخالفون لأمر الله وسنة رسوله .

نقل ولى الله الدهلوى فى كتابه : « عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد » عن أبى حنيفة رضى الله عنه أنه قال : « لا ينبغى لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى » ، وكذلك نقل هـذا القول الشعرانى فى الميزان واليواقيت . وقال الفقيه ابو الليث السمرقندى عن أبى حنيفة أنه قال : « لا يحل لأحد أن يفتى بقولنا مالم يعلم من اين قلناه » وهذا تصريح منه بتحريم ذلك وروى عن عصام بن يوسف أنه قال : « اجتمع أربعـة من أصحاب أبى حنيفة منهم : زفر بن الهـذيل ، وأبو يوسف ومحمد : الامامان الشهيران ، وعافية بن يزيد وكاهم اجمعوا على أنه لا يحل لأحد أن يفتى بقولنا ما لم يعلم من أين قلنا .

وفى كتاب روضة العلماء الروندوسية فى فضل الصحابة قال : قيل لأبى حنيفة : كيف اذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه قال : اتركوا قولى بكتاب الله . وقيل له اذا كان خبر الرسول صلى الله عليه وسلم يخالفه فقال : اتركوا قولى لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقيل له اذا كان قول الصحابة يخالفه فقـال : اتركوا قولى لقول الصحابة . وقال ابن شحنة فى

نهاية النهايات هكذا وان كان ترك الامام الحديث لضعف فى طريقه فينظر ان كان له طريق غير الطريق الذى ضعفه به فينبغى أن يعتبر ، فان صح الحديث اى الحديث الذى لم يأخذ به الامام من غير طريقه عمل به ويكون ذلك مذهبه ولا يخرج مقلده عن كونه حنفيا بالعمل به فقد صح عنه انه قال اذا صح الحديث فهو مذهبى ، ويظهر من هنا تماما ان التقليد عند أصحاب الائمة واتباعهم الاولين غير التقليد المعروف اليوم لأن الاولين انما كانوا يتبعون ما صح من الدليل ويستعينون بحفظ الامام وفهمه غير حاصرين انفسهم فى فهمه ودليله . هذا شأن ابى حنيفة رضى الله عنه .

واما مالك فقد روى الحافظ بن عبد البر عن الامام مالك ابن أنس رضى الله عنه أنه قال : « انما أنا بشر أخطىء وأصيب فانظروا فى رايى فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه» . وروى عن مزين وعن عيسى بن القاسم عن مالك رضى الله عنه انه قال : ليس كل ماقال رجل قولا وان كان له فضل يتبع عليه لقول الله تعالى : « **فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الألباب** » . وروى سحنون عن ابن وهب عن مالك أنه قال له : « يا عبد الله ما علمته فقل به ودل عليه وما لم تعلم فاسكت عنه واياك أن تقلد الناس قلادة سوء » . قال وجاء رجل الى مالك فسأله فقال له مالك : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا » فقال الرجل : ارأيت ؟ فقال مالك : فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم . وقال : لم يكن فتيا الناس أن يقال لهم قلت هذا . وكانوا يكتفون بالرواية ويرضون بها وهــذا تصريح بأن الأولين

ما كانوا يأخذون بآراء الأئمة وانما كانوا يأخذون برواياتهم عن الشارع فقط .

ومن المشهور المنقول عن مالك رضى الله عنه انه كان يقول : كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه الا صاحب هذا القبر ، ويشير الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم . ويقول كل كلام منه مقبول ومنه مردود الا كلام صاحب هذا القبر ، والروايات عنه فى هذا المعنى كثيرة جدا .

واما الشافعى فهو اكثر الائمة نهيا عن التقليد وحثا على الاجتهاد ولنمثل ههنا ببعض المنقول عنه . فقد صرح الامام الشافعى فى «الام» انه ليس لاحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول الا بالاستدلال .

وقد روى الحافظ البيهقى بسنده الى الربيع بن سليمان أنه قال : سمعت الشافعى وقد سأله رجل عن مسألة فقال — أى الشافعى — يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال كذا كذا . فقال له السائل : يا أبا عبد الله أتقول بهذا ؟ فارتعد الشافعى واصفر لونه وقال : ويحك اى ارض تقلنى واى سماء تظلنى اذا رويت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم اقل به نعم على الراس والعينين . وقال الربيع سمعت الشافعى يقول : مامن احد الا وتذهب عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه فما قلت من قول اواصلت من اصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما قلته ، فالقول ماقاله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قولى . وروى البيهقى ايضا بسنده الى الربيع قال : سمعت الشافعى يقول اذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول لله صلى الله عليه وسلم . ودعوا ما قلت . وقال الشافعى أيضا : أجمع الناس على أنه من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له ان يدعها لقول احد . وصح عنه أيضا أنه قال : لا قول لأحد مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وصح عنه أيضا أنه قال : كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند اهل النقل بخلاف ماقلت فانا راجع اليها فى حياتى وبعد مماتى . وروى عن الامام أحمد رضى الله عنه انه قال : كان احسن امر الشافعى عندى انه كان اذا سمع الخبر لم يكن عنده قال به وترك قوله . وقال أيضا قال لنا الشافعى : اذا صح عندكم الحديث فقولوا لى كى أذهب اليه ، هذا ومن يريد المزيد من المنقول أو تحقيق ما نقلناه فعليه بكتاب الأم ورسالة المزنى ، ومناقب الشافعى للبيهقى واعلام الموقعين عن رب العالمين ، والمدخل ، وكتاب الانصاف ونحوها من كتب القوم ، وعلى الاقرب فليطالع المجلات الدينية كمجلة المنار . ويفهم من مجموع ذلك ان التقليد الاعمى الذى نجرى عليه اليوم لايجوز الا للعامى البسيط الذى لافهم له ولا علم ، ولا استعداد ولا عقل ، وان الاجتهاد فى فهم الكتاب والسنة واجب على كل ذى فهم امكنته الفرصة فى كل زمان وفى كل مكان على قدر امكانه ، فالتقليد بهذا المعنى الذى نراه اليوم مخالف للعقل والانسانية ، مخالف للكتاب والسنة ، مخالف لاجماع الصحابة مخالف لاوامر الائمة المجتهدين الذين يدعى المقلدون تقليدهم — ومرتكبوه مع القدرة على فهم كتاب الله وسنة رسوله آثمون مفترون على الله الكذب ، وقائلون على الله مالا يعلمون ، وقد قال تعالى : « ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على

الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » وقال تعالى : « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وان تقولوا على الله مالا تعلمون » وقال الله لنبيه : « **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** » فقال المقلدون لا نستعمل فى دين الله سمعا ولا بصرا ولا فؤادا ولا نقفو علما بل نقفو راى فلان وفلان قال الله تعالى : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون » فقال المقلدون : ان القرآن غير مفهوم وان عقولنا لا تصل الى فهمه فجعلوه عضين فى الخزائن واكتفوا بتكرار لفظه دون التدبر الذى امر الله به واتبعوا فى ذلك سنن الذين من قبلهم ، وشملهم المثل الذى ضرب فيهم بقوله تعالى فى سورة الجمعة حيث قال : « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا** » قال الله لعباده : « **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** » وقال الله لهم : « **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء** » وقال الله لهم : « **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** » فقال المقلدون اختلافنا رحمة وقالوا نعتصم بقول فلان وفلان دون كتاب الله ، ونرد ما تنازعنا فيه الى قول من نختاره لنا اماما دون الله ورسوله وما اختلفنا فيه من شىء فحكمه الى فلان وفلان ، فتفرقوا بذلك وتقطعوا زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ، وصار يدعى كل فرقة رجحان ما هى عليه بغير دليل ولا برهان ولا هدى ولا كتاب منير .

أنزل الله كتابه للخلق وقال فيه : ((**ان فى ذلك لآيات لأولى النهى**)) فقال المقلدون لسنا من أولى النهى . وقال تعالى : ((**فاعتبروا يا أولى الأبصـــار**)) فقالوا : لســنا من أولى الأبصار . وقال تعالى : ((**ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**)) فقالوا : لسنا من القوم الذين يعقلون . ان المقلدين لــم يكتفوا بتحمل عار الجمود والجهل ، ولم يقفوا عند حــد الاعتراف بأنهم ليسوا من أولى النهى والعقــل ، وليسوا من طلاب العلم بل تفيأوا ظلال الجمود والكسل وتبوءوا مقاعد خزى الاعراض عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وجعلوا كتاب الله وراء ظهورهم ، بل هم فوق ذلك كله يعيبون اهل الفضل والعلم والعقــل الذين يتمسكون بالكتاب والسنة ويرمونهم بالابتــداع والمروق . فيــا للعجب من أعمى يعيب المبصرين ، وأصــم يعيب السامعين ، وبليد يعترض على أذكياء عقلاء مجيدين ، وجامد كسول يسب أهل الهمم والعزائم المجدين ، وضال يسخط على المهتدين ، ذلك والله نبأ عظيم وحكم جائر .

واما ما يستدل به المقلدون على جواز التقليد الاعمى او ما يستند عليه الذين يجوزون لهم ذلك من ثبوت الحكم بالاقرار والشاهد وقبول قول القائف والخارص والقاسم ، والحاكمين بالمثل فى جزاء الصيد وقبول أعلام المؤذن بدخول الوقت ، او الافطار والصوم والترجمة والتعريف ، والجرح والتعديل والبائع والذابح ، والمرأة فى انقطاع دمها وفى دعوى الارضاع ونحوها ، فكل ذلك تمثيل لحكم الشارع وكل ذلك مما شرع لنا قبوله ومما جرى عليه الرسول وأصحابه وسلف الأمة الذين جاء مدحهم فى الكتاب والسنة بقوله تعالى : ((والسابقون

الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

وبقوله صلى الله عليه وسلم كما فى الصحيحين « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

واما التقليد الاعمى وجعل آراء الرجال من النصوص الشرعية فمما لم يأذن به الله ولم يسنه رسوله ولا اصحابه ، ولا احد من سلف الامة ، فهو بدعة وضلالة ومشاققة لله ورسوله : « **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا** » ، « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** » . ولو كان التقليد العميانى فى الدين حجة أو عذرا مقبولا لعذر الله الكفار القائلين : « **انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون** » والقائلين : « **حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** » و « **بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** » .

المقلدون بحسب العرف على ثلاثة اقسام :

الاول — مقلد له استعداد وفرصة لفهم حجج الله واحكامه فى ذاته ، ولكنه لا يستخدم عقله فى فهم كتاب الله وسنة رسوله ولا يتبصر ولا يتدبر فيهما ، ولا يريد ان يسمع لهما وهذا هو الذى عرض الله بشأنه فى سورة الأعراف بقوله الاسمى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون

بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل اضل اولئك هم الغافلون » .

الثانى – مقلد ليس له استعداد لفهم الحجة بنفسه ، او لم تسنح له الفرص للقيام بواجب التأمل والتدبر فى الكتاب والسنة وحفظ ما جاء عنهما فهذا قد أمره الشارع أن يسأل أهل الذكر عما جاء عن الله ورسوله من الاحكام بقدر حاجته بقوله تعالى « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » وقوله صلى الله عليه وسلم : « انما شفاء العى السؤال » ولكنه لا يسأل العالم عن رأيه بل يسأله عما حفظ عن الله ورسوله من الاحكام ويستعين به على فهم ما عسر عليه فهمه .

الثالث : مقلد بسيط لا يكاد يفقه قولا ولا يعقل حجة فهذا لا محيص له عن التقليد المطلق ، لان الله لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولكنه يجب عليه على الاقل ان يسأل العالم الذى قلده هل الحكم الذى يتلقاه منه من رأيه فيكون لغيره رأى فيه ، أو من عند الله ورسوله ، وعليه فلا ينبغى له أن يتعصب لامام مخصوص او مفت مخصوص ، لجواز ان الدى لقيه ثانيا ربما يكون أعلم أو أصوب مما لقيه أولا ، وأما اذا تعصب لشخص مخصوص وميزه على مماثليه بغير حجة او قدم رأيه على رأى من هو اعلى منه فهو متبع هواه اذ لا يجب على المقلد التزام مذهب واحد كما رجحه ابن برهان والنواوى وأحمد بن حنبل وغيرهم ، غير أنه لا ينبغى له أن ينتقل من قول المفتى الاول الذى جرى على العمل به الا ببرهان .

هذا شأن التقليد والمقلدين ، واما الاتباع والتأسى فهو اخذ الحكم الدينى المعضد بالدليل ممن اشتهر بالعلم والورع

والاحتياط للثقة بروايته او لموافقة فهمه حقيقة او ادعاء والاقتداء مثله غالبا وكلاهما محمود ان لم يكن مخالفا للواقع او لحكم معضد بنص اقوى منه و برهان عقلى صحيح لقوله تعالى : ((**فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب**)) .
وقوله تعالى : ((**قل أولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم**)) وقوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : ((**واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شىء**)) وقوله تعالى : ((**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**)) .

ان الائمة المجتهدين ليسنوا بمشرعين حتى نجعل أقوالهم وآراءهم نصوصا شرعية نقارنها بنصوص كتاب الله وسنة رسوله فضلا عن أن نجعل آراءهم موازين لهما بحيث نقبل ما وافق آراء أحد منهم ونرد ما لم يوافق ، وليست هذه الخطة الا خطة اللجان البابوية التى صدق على الناس باتباعها خبر الصادق المصدق فى حديث ((لتتبعن سنن من كان قبلكم الخ))
وليس التقليد الأعمى الذى نسير عليه اليوم من تعاليم الائمة ولا مما ارتضوه لنا بل هم علموا من لقيهم كيفية الاستنباط من الكتاب والسنة وبذل الوسع فى تدبرهما ومنعوا جميعا الفتوى بغير الدليل والاعتماد على الاستحسان لأن من استحسن شيئا وجعله دينا فقد شرع مالم يأذن به الله كما قال الشافعى .

ومن شرع فقد كفر ، هذا ، وأما الراوى للحكم أو المتعلم له من غيره أو المسترشد لمواقعه من غيره فليس مقلدا ،

وانما هو سائل عن حكم الله ورأى لنصه ليتدبر فيه كما أمره الله ومسترشد طريق الدليل . نعم قد يستند المجتهد حينما لا يجد فى القضية نصا من الكتاب والسنة أو اجماع الصحابة وفتاواهم على نوع من القياس ، ولكن لا يكون ذلك حجة على غيره ولا دليلا شرعيا يجب اعتباره كالنصوص الشرعية ، وانما هو حيلة المضطر ، ولا يلزم من كونه لم يجد أن النص غير موجود فى ذاته فيجوز ان يجده غيره ومحل القياس ما ابيح فيه من الامور التى لها تعلق بأحوال الدنيا الذى اذن فيه الشارع للناظرين فيه بقوله صلى الله عليه وسلم : أنتم اعلم بأمور دنياكم .

وأما أمور الدين المتعلقة بالعبادات والعقائد وأمور الاخرة فلا يجوز فيها قياس واجتهاد من احـــد فى زيادة فيه ولا تنقيص منه ، لأن الله منع الغلو فيه وأخبر أنه قد أكمله بقوله تعالى : ((**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا**)) وقال الرسول فيه : ((من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد. ومن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)) فكما ان ما أصـــله الثبوت من ذلك لا ينتفى الا بالبرهان الواضح ، كذلك ما أصله العدم لا يثبت الا بالنقل الصحيح ، وما لم يثبت لايكون اسلاما او دينا يتعبد الله به . ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين .

شروط المجتهد الكامل عند القوم ان يكون عالما بما يتعلق بالأحكام من نصوص الكتاب والسنة وهى بالنسبة للصريح الظاهر نحو ٥٠٠ آية من الكتاب كما قال الغزالى وابن العربى وغيرهما ومن الأحاديث مثلهـا. وقيل من الاحاديث ألف ومائتان على ما ذهب اليه الامام احمد . والحق انه اكثر من

ذلك كما قاله النواوى وغيره ، ولا يشترط الحفظ ولا حضورها
فى الذهن بل المقصود امكان الوصول اليها ، وادراك ما فيها
من الكتب وأن يكون عارفا بمسائل الاجماع لئلا يخرقه .
والمراد اجماع جميع الصحابة او جميع المجتهدين المستوفين
للشروط فعليا ، فى عصر بعدهم لا الاربعة المشهورين فقط ،
وان يكون عالما بلسان العرب وقواعدها من النحو والصرف
والمعانى والبيان على الوجه المطلوب ، بحيث يمكنه تفسير
ما ورد من الكتاب والسنة ولو بالمراجعة ، ولا يشترط الحفظ
بل يكفى القدرة على المراجعة والفهم وان يكون عالما كذلك
بأصول الفقه والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة وهو
على القول الراجح خمس آيات من الكتاب ، وعشرة احاديث
من السنة ، وقيل الأحاديث تبلغ خمسة وعشرين حديثا
والآيات أكثر من ذلك ، وأن يكون عالما كذلك بأحوال رجال
الحديث واصطلاحاتهم ، ولا يلزم المجتهد ان يجتهد فى كل شىء
بل فيما يلزم العمل به فقط ، وفيما امكنه الاجتهاد فيه دون
غيره من المسائل ، وهو الحق اذ لاقائل بأن اماما من الائمة
أحاط بكل ما جاء عن الشارع ، وما من أحد الا وتذهب عنه
سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه . كما قال
الشافعى ، وهو رأى الاكثر كما حكاه الصفى الهندى وهو
المختار كما ذكره ابن دقيق العيد . وجوز ذلك الغزالى
والرافعى وغيرهما . والكتاب مقدم على السنة عند التعارض
لمزيد تواتره ويقينية اصابته ، والمتواتر من السنة مقدم على
ما رواه الآحاد وفيها درجات تعرف من كتب الحديث ، وكذلك
اجماع الصحابة لبعد كونه غير مستند على النص . ثم اجماع
مجتهدى العصر عند من يقول بحجيته . ثم القياس على مابنى
الحكم فيه على العلة ، ثم البراءة الاصلية . واذا تعارض
اجتهاد المجتهد الواحد فى زمنين او تعارض اجتهاد مجتهدين

فى مسألة واحدة فالحق أن الحق منهما واحد كما قاله مالك والشافعى وأبو حنيفة . والمجتهد مأجور على كل حال بما ثبت فى الصحيح من طرق عنه صلى الله عليه وسلم : « ان الحاكم اذا اجتهد واصاب فله اجران وان اجتهد واخطأ فله اجر » .

قد علم مما تقدم ان التقليد الذى يذمه الله ورسوله والائمة المجتهدون ونذمه نحن تبعا لهم ليس اخذ الحكم مع الدليل من الثقات ولا حسن الظن بالعلماء المشهورين الموثقين فى اعتبار ماروره لنا عن الله ورسوله ، ولا اتباع خطتهم فى الاستنباط ولا اعتبار ما أجمعوا عليه ، بل التقليد المذموم هو الاعتماد على قول لا حجة لقائله عليه او الرجوع الى قول امام مخصوص فى جميع أحكام الدين بحيث يرد كلما خالفه ويقبل كلما وافقه بدعوى انه اعلم من غيره او انه يحفظ لكل حكم دليلا شرعيا وان لم يظهره أو يحفظ عنه أحد ، ولا شك ان هذه الدعوى باطلة ولا يصح لاحد ان يحكم بأعلمية العالم او بحفظه دليلا لكل حكم حكم به الا بعد معرفة ماعند الجميع من الادلة ، وذلك يستدعى رجلا اعلم من جميعهم بحيث يمكنه الحكم بينهم ، ولاشك ان تصحيح احد الدليلين اخف وايسر من ترجيح احد الامامين ، ان كل احد يتخذ وليجة من من دون الله يحلل ما حلله ويحرم ماحرمه بدون نظر الى حجة شرعية فقد اتخذه ربا معبودا من دون الله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » على مافسره الرسول (ص) فقدروى عن عدى ابن حاتم أنه قال : انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتى هذه الآية « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله » قال فقلت يا رسول الله انا لم نتخذ أربابا فقال — أى الرسول — بلى أليس يحللون لكم ما حرم عليكم فتحلونه

ويحرمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه ؟ فقلت : بلى قال : فتلك عبادتهم . وهذا يصدق على المقلد الذى يعقل الدليل ثم يقدم قول مقلده عليه بدعوى انه اعرف بحال الدليل او اعلم أو افهم أو نحو ذلك من العلل .

❋ ❋ ❋

الزامــات

(١) كل من يمضى حكما على احد باسم الدين بمجرد التقليد بغير حجة شرعية يكون قائلا على الله ما لا يعلم ، وقال ما ليس له به علم ، لقوله تعـــالى : **((ان عنـــدكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون))** وقال تعالى : **((ولا تقف ما ليس لك به علم ان الســمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا))** .

(٢) اتفق الائمة على ان السلطان لو اشترط على الحاكم الذى يعينه ان يحكم براى احد من الناس لم يصح شرطه ولا توليته وكذلك اتفقوا على أنه يحرم على المفتى أن يفتى بما لا يعلم صحته باسم الدين ، ومقتضى ذلك ان المقلد الذى يتبع قول شخص مخصوص بغير حجة لا يجوز له أن يتولى حكما ولا يفتى فى مسألة من مسائل الدين لأنه لا علم له بصحتها ولا فسادها لكون طريق ذلك مسدودا عليه واختياره لقول مقلده على قول غيره بغير حجة ولا برهان ، كما أن اعتقاده أن اختاره مقلده أصوب أو أرجح مع اقراره بعدم عصمته واعترافه بعـــدم معرفة حجته تحكم وترجيح بغير مرجح ، وظن غير معتمد على أساس ، والله تعالى يقول :

« **وان الظن لا يغنى من الحق شيئا** » ويقول : « **ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** » والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث » والمراد بالظن المذموم هو الظن غير المعتمد على الدليل الشرعى او العقلى لا ما يؤدى اليـه الاجتهاد فى الادلة الشرعية .

(٣) اذا كان لابد من التقليد فتقليد من قلدهم الائمة على فرض وجود المدعى لهم ذلك من التابعين والصحابة اولى من تقليد الائمة لاعتراف الائمة بأعلميتهم بالاحكام واللغة ولهجة الشارع ، كما أشار اليه أبى رضى عنه يقول : ما استبان لك فاعمل به وما اشتبه عليك فكله الى عالمه وهو الرسول ، ثم علماء أصحابه من بعـده ، لكونهم أعرف الناس بسننه وفتاويهـم من باب التبليـغ او التفهـم والتدبر فى الكتاب والسنة .

(٤) اذا علمنا ان الائمة لم يكونوا مقلدين وانهم كانوا ينهون عن التقليد ، علمنا أن الذين يتبعون اثر الائمة فى كل زمان هم الذين يجتهدون على قدر وسعهم ويستعينون بما جاءهم من طريق الائمة عن الشارع ، وينهون النـاس عن التقليد ، هذا هو الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون .

(٥) المقلد لا ينبغى له أن يناظر أحدا ، لأن المناظرة تستدعى الدليل ، وهو لا دليل له ولا يعتمد على الدليل ، فلا ينبغى له ان يستدل بمالا يعتمد عليه .

(٦) ان المؤمنين الذين ضمن الله لهم الفلاح هم الذين

يتبعون النـــور الذى أنزل مع الرسول ، لقوله تعـالى : ((**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون**)) من كان تابعا آراء الرجال راميا كتاب الله وسنة رسوله وراءه ظهريا فلا يكون من المفلحين .

(٧) اذا كان باب الاجتهاد مفتوحا فى أيام الأئمة وأيام من بعدهم ، فنحن نسأل من يدعى انسداده ؟ هل كان ادعاؤه هذا بنص من كتاب او سنة او بقول امام من الائمة الذين حصر الاجتهاد فيهم أم بمجرد اجتهاد هذا المدعى ؟ فان ادعى أن ذلك كان بالنص أو بقول امام من الأئمة المجتهدين طالبناه بذلك ، وان قال : ان ذلك من أجتهاده قلنا له : كيف تقول ذلك بالاجتهاد وقد ادعيت أن باب الاجتهاد قد انسد ؟. نقول ذلك على قلة من انفلتت منهم هذه الكلمة أى كلمة انسداد باب الاجتهاد من العلماء وعده الناس هفوة منهم على ان أولئك الأفراد الذين منهم الغزالى ، لم يقولوا بانسداد بابه ، ولكنهم ادعوا عدم وجوده فى وقتهم ، وعلى كل حال فلا يمنعنا عظم مقامهم من ان نقول : انهم مخطئون لانهم لم يعتمدوا فى ذلك على دليل ، ولان الذين خالفوهم اقوى حجة واعظم علما واكثر عددا .

***

● **تنبيه :**

ليس غرضنا من فتح باب الاجتهاد اثبات أنه يجوز خرق اجماع من تقدم من الأئمة المجتهدين ، أو ابطال أقوالهم بل الغرض أن نثبت أنه يجب الأخذ بما ثبت دليله من أقوالهم دون ما ضعف دليله ، وتحريم التعصب ، أو ادعاء حصر الحق او ارجحية الدليل فى مذهب واحد منهم ، وحث الناس على الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ورد ما تنازعوا فيه اليهما دون غيرهما كما امرهم الله .



الذى أنزل مع الرسول » لقوله تعـالى : « فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » من كان تابعا لآراء الرجال رغما عن الله ورسوله ... وراءه ظهريا فلا يكون من المفلحين :

٧ - ألا أن باب الاجتهاد مفتوحا في أيام الأئمة ولم [illegible]

[illegible]

... الاجتهاد من العلماء ويعده الناس ... عليهم على أن العلماء الذين بعد الغزالى لم يكونوا ... أنفسهم ... في وقتهم ، وعلى كل حال ... أنهم مخطئون لأنهم لم ... ولأن ... أسوى ... والأمر ...

المسألة الثانيـة

السَّنَّة والبدعـة

المسألة الثانية :

السنة والبدعـــة

معنى السنة ، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يـــوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » .

السنة تستعمل فى معان كثيرة .منها القضاء والحكم المستمر كما فى قوله تعالى فى سورة الاسراء : « وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » وكما فى قوله تعالى فى سورة فاطر : « فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسـنـة الله تحويلا » وكما فى قوله تعالى فى سورة غافر « فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « أبغض الناس الى الله ثلاثة : ملحد فى الحرم ، ومبلغ فى الاسلام سنة الجاهلية ، ومطلب دم امرىء بغير حق ليهريق دمه » . وسنة الجاهلية احكامهم وقضاياهم ، وقد تستعمل بمعنى الطريقة والسيرة التى يسير عليها الرجل أو القوم ، فيقال : فلان سن طريقة كذا بمعنى سار فيها وان لم يكن هو الذى اخترعها كما فى القاموس . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « النكاح سنتى

اى طريقتى التى اختارها واسير عليهـــا او كما قال : ومن المعلوم انه صلى الله عليه وسلم ليس هو أول من ابتدع النكاح . وقد تستعمل السنة بمعنى البيان ويقال : ســن الرجل الامر بمعنى بينه كما فى معجم الطالب وغـــيره من القواميس . وقال الأمدى فى الاحكام : سنة كل أحد ما عهدت منه المحافظة عليه كان ذلك من الأمور الحميدة أو غيرها . واما فى الشرع فقـــد تطلق على ماكان من العبادات نافلة منقولة عن النبى عليه السلام ، وقد تطلق على ما صدر عن الرسول من الأدلة الشرعية مما ليس بمتلو . ويقال : سن فلان سنة بمعنى بين طريقا قويما ، وسن الله احكامه بينها للناس . وقد تستعمل كلمة سن بمعنى اجرى فيقال : سن الله على يدى فلان حاجتى بمعنى طرق طريقة حسنة . وتطلق السنة ايضا على الطريق المستوى كما فى المخصص . كل ذلك فى اللغة . واما السنة فى اصطلاح اهل الحديث فهى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله واقراراته المفصلة لما أجمل فى القرآن من الحكم والأحكام . وفى اصطلاح الفقهاء ما يستحق فاعله ثوابا ولا يستحق تاركه عقابا . وأما السنة بمعنى انشاء خطة جديدة أو عمل جديد لم يسبق له نظير ، فهى قد تستعمل فى اللغة العربية ايضا ، ولكن لايجوز ذلك فى الشرع ، وبالخصوص فى صور العبادات حتى للانبياء فضلا عن غيرهم ، وكلما يطلق عليه كلمة السنة مما جاء عن الرسول فهو من جملة الوحى لقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله » اى بما افهمك الله من كتابه . وليس للرسول حق التشريع المطلق لقوله تعالى : « قل مايكون لى ان ابدله من تلقاء نفسى أن أتبع الا ما يوحى الى » ولقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فاستقم كما امرت ومن تاب معك

ولا تطغوا » أى لا تتعدوا حدود الله ولقوله تعالى : « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه » ولقوله تعـــــالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » ولقوله تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » ولقوله تعالى : « فانما عليك البلاغ » ولقوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » ولقوله تعالى فى معرض التوبيخ والانكار « ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » نعم قد ادعى البعض جواز التشريع بالاجتهاد للرسول صلى الله عليه وسلم معتمدا على حديث : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » وحديث : لو قلت نعم لوجبت فى الحج فى كل عام ، ولكن ذلك ليس يقينى الدلالة عـــلى المقصود لقبولها التأويل والاحتمال ، بارادة التأكيد ، وفرض الحث فى الأول وفرض مصاحبة الوحى فى الثانى ، ونصوص الكتاب صريحة فى عكسه ، وهى مقدمة اتفاقا على روايات الآحاد ، بل قال المحققون مطلقا : لاتجوز الزيادة فى الشرع وبالخصوص فى العبـــادات لأن الله لم يأذن بذلك بل نهى عنه فى كتابه ووبخ عليه من سبق من الأمم بقوله تعالى : « لا تغلوا فى دينكم » وبقوله تعالى : « ولا تتبعوا السبـــل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » وبقوله تعالى : « ام لكم كتاب فيه تدرسون . ان لكم فيه لما تخيرون ام لكم ايمان علينا بالغة الى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون » وبقوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » والاسلام هو ماجاء به الرسول عن ربه فقط ، لا ما يخترعه فلان وفلان من صور العبادات وقد قال تعالى : « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فعلم من ذلك ان الاسلام كامل لا يحتاج الى زيادة احد ، وان الله لم يرض لنا غيره .

ولا يعقـــل أن نتقرب الى الله بما لم يرضه ، وقد صح أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحدث فى امرنا هذا ماليس منه فهو رد . وانه قال شر الامور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » وانه صلى الله عليـــه وسلم قال : من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد ـ اى باطل مردود غير مقبول ـ وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال : اياكم والغلو فى الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين . وانه قال : « ما احدث قوم بدعة الا رفـــع من السنة مثلها » وعنه صلى الله عليه وسلم قال : « اياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة . تلك حدود الله فلا تتعدوها ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . وان من استحسن شيئا وجعله دينا يتعبد الله به فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله ، ومن فعل ذلك فقد أشرك » قال الشافعى : من استحسن فقد شرع ومن شرع فقد كفر كما قال الرؤيانى .

هذا وبعد أن علمنا بنص الكتاب والسنة أن الزيادة فى الدين لا تجوز ، وأن العمل الدينى الذى لم يكن عليه أمر الله والرسول مردود ، وان ذلك هو عين البدعة المحكوم عليها بالضلالة اذ ليس بعد الحق الا الضلال ، وجب علينا ان نوجه تلك الاحاديث بما يطابق الكتاب والسنة الصحيحة لاننا مأمورون بأن نؤمن بالكتاب كله لا بأن نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعضه الآخر . فنقول : ان ذلك الحديث روى بروايات متعددة والفاظ كثيرة ويدل ذلك على انه روى بالمعنى لا باللفظ ، وهو يفسر بعضه بعضا . ونحن موردون رواياته المشهورة ههنا .

فالرواية الأولى من هذا الحديث : عن مسلم هكذا :
من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها
بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن سن فى الاسلام
سنة سيئة كان عليه وززها ووزر من عمل بها بعده من غير
ان ينقص من أوزارهم شيئا . وتد يرفع شىء فى الموضعين
ومعناه من انشأ عملا من اعمال الخير النافعة للانسانية
والمسلمين احتسابا كالمستشفيات وبيوت الأيتام والمدارس
والصناعات النافعة وآلات الدفاع وتنظيم الجيوش وتدوين
الحديث والتفسير لأن ذلك كله داخل فى أمر : « وأعدوا لهم
ما استطعتم من قوة » وأمر : « فاستبقوا الخيرات » . والأمر
بالتسديد والاحتياط . والأمر بالحذر من الاعداء . وتدوين
الحديث كتدوين القرآن . ومعنى من سن سنة : من أحيا
سنة اومن بين سنة كانت خافية او مجهولة . اومن سارع
الى سنة .ويدل على هذا ماروى مسلم فى سبب الحديث فى
الجزء الثامن حيث قال : جاء ناس من الأعراب الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، عليهم الصوف ، فراى سوء حالهم
قد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة ، فأبطأوا عنه
حتى رؤى ذلك فى وجهه . قال ثم ان رجلا من الأنصار جاء
بصرة من ورق — بكسر الراء : الفضة — ثم آخر ثم تتابعوا
حتى عرف السرور فى وجهــه فقال رسول الله : « من سن
فى الاسلام .. الخ » وسن : مأخوذة من السنن . والتقييد
بأن له ثواب من عمل بها بعـده مخرج عنه ثواب من عمل
بها قبله . والتقييد بالاســلام للاشارة بأن العمل الصالح
مع الكفر لا ينفع فى الآخــرة ، والعمــل السىء الذى سلف
فى وقت الكفر يعفــو الله عنــه ان صــدق فى التــوبة

والاسلام ، لقوله تعالى : عفا الله عما سلف . ولقوله صلى الله عليه وسلم : اذا اسلم العبد فحسن اسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان ازلفها وكان بعد ذلك القصاص .

الرواية الثانية : عن مسلم والترمذى أيضا بلفظ : من سن سنة خير ومن سن سنة شر الى آخر ماتقدم : والمقصود منه الاحياء والبيان أيضا ، اذ يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم : سنة خير وسنة شر ان يكون وجه كونها سنة خير او كونها سنة شر معلوما من قبل السلوك فيها والعمل بها ولا يعرف ذلك فى امور الدين إلا من طريق الشارع إذ لو كان يعرف بدون طريقه لما كان لنا حاجة اليه .

الرواية الثالثة : فى مسند أحمد هكذا : ما من رجل ينعش بلسانه حقا فعمل به من بعده الا جرى عليه أجره الى يوم القيامة ثم وفاه الله ثوابه يوم القيامة وينعش بمعنى يحيى كما فى العزيزى ..

الرواية الرابعة : عند مسلم وأحمد وأهل السنن هكذا : من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا . ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامه شيئا . ولا يتأتى فى الدعوة الى الهدى أو الضلالة الا بعد معرفتها من حيث الأمور الدينية متوقفة على تعريف الشارع لها أيضا عملا أو قولا أو اقرارا ، وقوله صلى الله عليه وسلم : مثل اجور من تبعه يوضح معنى قوله واجر من عمل بها بعده تبعا له .

الرواية الخامسة : فى الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اعلم يا بلال أنه من أحيا سنة من سنتى قد اميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن ابتدع بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آثام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا » وهذا الحديث يوضح معنى الأحاديث ومقصودها بأجلى بيان . لان رضا الله بالعمل وعدم رضائه به لابد ان يكون بيانه منه .

وأما من يقول : ان هذا الحديث يدل على أن من ابتدع شيئا فى الدين ورآه حسنا فله أجره وأجر من عمل به الى آخره فقول باطل وهو لا شك شارع من الدين ما لم يأذن به الله ومحدث فى الدين أمرا ليس عليه أمر الرسول . وهو داخل فيمن زين له سوء عمله فرآه حسنا . وداخل فى من ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا . وداخل فيمن اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة . وداخل فيمن شاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى واتبع غير سبيل المؤمنين . فنسأل الله السلامة والتوفيق لاتباع صراطه المستقيم .

وأما المحدثات التى لها أصل اجمالى فى الشرع من دواعى القوة والاحتياط المأمور بهما فى كتاب الله كتدوين كتب اللغة والدين خيفة التلف أو رفع الجوامع للاذان ودور الدين والعلم التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، أو الجمعيات المقامة على التعاون على البر والتقوى والتشاور فى الاصلاح اللذين أمر بهما الله فى كتابه أو النظامات العسكرية المرغب

فيها بقوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » أو المستشفيات ودور التربية والرحمة المندوب اليها بقوله تعالى : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » وما أشبه ذلك من أعمال الخير ، فهو داخل فى المشروع المأمور به . وكونه بدعة ليس على الحقيقة . وانما هو بحسب الصورة وعرف الناس فقط ، بخلاف البدعة فى العبادات اذ كل شيء خالف السنة فيها مذموم مردود كما نقله البيهقى عن الشافعى فى مناقبه ، حيث قال : المحدثات ضربان ما أحدث يخالف كتابا او سنة او اثرا او اجماعا . فهذه بدعة ضلالة . وما أحدث من الخير لا يخالف شيئا من ذلك فهى محدثة غير مذمومة . وهى أمثال ماذكرناه من الأمور الخيرية . فالبدعة فى عرف الشارع ما أحدث وليس له أصل فى الشرع الالهى كما فى قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » وان كان معناها فى اللغة هو ما أحدث بغير مثال أو ما أحدث ولم يطل أمره وكان مستغربا . ولكن معناها اللغوى غير مقصود هنا . فتحصل من جميع ما سبق أن كل محدثة فى الدين لم يظهر فيه رضا الله بنص كتاب ولم يكن عليه أمر الرسول بقول أو عمل أو اقرار فهو بدعة ضلالة ، وان المراد من الأحاديث السابقة هو بيان السنة الخافية او احياء السنن الميتة او انشاء الأعمال الخيرية المأذون بها اجمالا .

***

● تنبيه وتكرير

الاصل فيما كان من العبادات والتكاليف الدينية العدم والمنع ، فلا يجوز ابتداع شيء من أنواعها و لا الزيادة فى شكل

من أشكالها الا بتشريع من الله ورسوله بنص صريح قولى أو عملى أو اقرارى لقوله تعالى : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » ولقوله تعالى : « فاستقم كما أمرت ومن تاب ولا تطغوا » ولقوله صلى الله عليه وسلم : من احدث فى امرنا هذا ماليس منه فهو رد : ولقوله صلى الله عليه وسلم : اياكم والغلو فى الدين فانما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين ، الى غير ذلك من الأحاديث والآيات الكثيرة . وأما أمور الدنيا فالأصل فيها الاباحة حتى يأتى النص بمعناها . لقوله صلى الله عليه وسلم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فالابتداع والاختراع فيها مباح ما دام المخترع نافعا غير ضار بالمجموع أو الفرد .

وأما من يقسمون البدعة الى خمسة أقسام أو ثلاثة أقسام ، فان كانوا يريدون البدعة فى الدين . أى شىء من صور العبادات والأحكام المحدودة فهم مخطئون لا محالة وليس لهم أدنى حجة أو اثارة من علم — أى بقية من علم — وليس بعد قول الرسول : فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، بيان او سبيل لوهم واهم . واما ان كانوا يريدون التفنن فى امور الخير المأذون فيها كما مثلنا فقد علمت ما يقصدون ولم يبق الا طاعة الهوى أو الدين . ولقد أوقع كثيرا من الناظرين فى الارتباك فى هذه المسألة اعتبارهم لمدلول البدعة فى اللغة ، دون عرف الشارع . فذلك هو الذى أداهم الى تقسيم البدعة الى خمسة اقسام . هذا ماتيسر وفى النفس وضع رسالة حاوية لجل ماقاله الائمة فى هذا الموضوع ان سنحت الفرصة وساعدت المشيئة الالهية والله ولى التوفيق .

***

المسألة الثالثة

زيارة القبور والتوسل والشفاعة

المسألة الثالثة :

زيارة القبور والتوسل والشفاعة

أما زيارة القبور فقد تكون سنة ان كانت لتليين القلب برؤية القبور ، وتذكر الآخرة ، بشرط أن لا يمزج ولا يتبع بشيء من المنكرات كالنياحة والبخور والسراج عليها ، والطلب من الاموات والاستشفاع بهم او التبرك او التوسل الى الله فى قضاء الحوائج بالاقسام على الله بها ، او بجاه أهلها او بحقهم على الله أو الجلوس عليها أو اتخاذ المساجد فوقها أو القراءة فوقها أو الذبح عندها ، أو النذر لها أو نحو ذلك من المنكرات . فان جميع ما ذكر منكر ، غير أن بعضه مكروه وبعضه حرام ، وبعضه شرك وكفر صريح ، قلنا ان الزيارة الخالية عن جميع المنكرات المذكورة سنة لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة فى سننه عن زيد بن ثابت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : زوروا القبور ولا تقولوا هجرا ، أى لا تقولوا عندها قولا غير لائق كالنياح والطلب منهم ونحو ذلك ، ولقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة أيضا فى سننه عن أبى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل الى البقيع ، فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وآتاكم ما توعدون ،

غدا مؤجلون وانا انشاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » . وروى مسلم فى صحيحه ايضا عن ابى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استأذنت ربى فى أن أستغفر لأمى فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور ، فانها تذكر الموت » وقلنا ان الزيارة لاتكون سنة بل ولا مباحة اذا مزجت أو اتبعت بشىء من المنكرات كالنياحة والبخور والسراج عليها لقوله صلى الله عليه وسلم : « زوروا القبور ولا تقولوا هجرا » كما تقدم ، وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن ماجة وأحمد والحاكم عن حسان ابن ثابت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله زوارات القبور » وقد روى هذا الحديث ايضا احمد والترمذى وابن ماجه عن ابى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم . وتخصيص الزوارات لكونهن فى الغالب لا يزرن لتليين القلب ، لضعف عقولهن ، بل للتوسل بالقبور أو التبرك بها او الطلب من أهلها كما هو مشاهد ، واللعن هنا للتشديد فى التحذير فقط ، وهو مفسر بالحديث الذى بعده وقد روى النسائى والترمذى وابو داود والحاكم عن ابن عباس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » . وقلنا ان **الجلوس عليها والصلاة اليها او عليها واتخاذ المساجد عليها من المنكرات** ، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم فى صحيحه عن جندب عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بخمس سنوات : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد الا فلا تتخذوا القبور مساجد فانى أنهاكم عن ذلك » . وقد روى مسلم أيضا فى صحيحه عن ابى هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقبرة فقال : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وانا ان شاء الله بكم لاحقون»

ثم قال : اشـــتد غضب الله على قوم اتخـــذوا قبور أنبيائهم مساجد . وقد روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، يحذر ما صنعوا ، قالت عائشة ولولا ذلك لأبرز قبره غير انى أخشى أن يتخذ مسجدا . وقد روى مسلم عن حيان بن حصين الأسدى المكنى بأبى الهياج عن على بن أبى طالب أنه قال : (أى على رضى الله عنه لأبى الهياج) ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته بالارض » وروى مسلم ايضا عن جابر انه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر او يبنى عليه او ان يكتب عليه شىء » وروى هذا الحديث ايضا الامام احمد وأبو داود والنسائى عن جابر ، وقد وري البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنه وصف لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة فى الحبشة فى مرض موته ، فرفع رأسه وقال : « أولئك اذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » . وقد روى البخارى ومسلم وأبو داود عن عائشة رضى الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وقد روى مسلم فى صحيحه والامام أحمد فى مسنده وأبو داود والنسائى فى سننهما عن جابر الانصارى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى ان يقعد على القبر وأن يجصص او يبنى عليه شىء . وقد روى مسلم ايضا والامام احمد وابو داود والنسائى وابن ماجة عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لان يجلس أحدكم على جمرة فتخترق ثيابه فتخلص على جلده

خير له من ان يجلس على قبر . وقد روى الامام احمد ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى عن أبى مرثد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : **لاتجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها** . والجلوس المنهى عنه على مايظهر هو الجلوس عليها للتبرك والاستشفاء ، أو للعبادة والدعاء ، وأما الجلوس على القبر بغير قراءة ولا نية ولا لعبادة بل للاستراحة ريثما يدفن الميت أو تقضى الحاجة أو لوعظ الحاضرين ، فلا بأس به ، لما رواه البراء قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة فانتهينا الى القبر ولما يلحد ، وفى رواية حتى يلحد ، فجلس فجلسنا حوله وكذلك روى البخارى ما يؤيد ذلك وأما القيام على القبر قليلا بعد الدفن والدعاء للميت بالتثبيت فقد روى ابو داود والبزار عن عثمان رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا دفن الرجل من أمته يقوم على قبره ويقول : « سلوا الله له التثبيت فانه الآن يسأل » .

واما القراءة فوق القبور فى وقت زيارة القبور فليس من المشروع الثابت ، وما جاء فى ذلك من الاحاديث فضعيفة أو موضوعة كحديث : « من زار قبر والديه أو أحدهما يوم الجمعة فقرأ عندهما يس غفر له » (رواه ابن عدى فى الكامل وهو ضعيف) وحديث الطبرانى المروى عن عبد الرحمن بن العلاء عن اللجلاج عن أبيه أنه قال : قال لى اللجلاج : يا بنى ، اذا مت فالحدنى ، فاذا وضعتنى فى لحدى فقل : باسم الله وعلى ملة رسول الله ثم سن على التراب سنا ثم اقرأ عند رأسى فاتحة البقرة وخاتمتها ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك . واما رش الماء على القبر فجائز لما روى ابن ماجة عن أبى رافع قال : « سل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ

سلا ورش على قبره الماء » . وثانيا : ان الاحتفال حول القبور واقامة الاعياد والمحافل عليها والتبرك بها من المنكرات لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد وأبو داود عن النبى صلى الله عليـــه وسلم أنه قال : « لا تجعلوا قبرى عيدا ، ولا تجعلوا بيوتكم قبورا ، وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » ولكون هذا العمل هو أساس المجوسية والوثنية التى ارسل الله الرسل لتخليص الناس منهـــا وتحذيرهم عنها ، فان ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا المذكورين فى القرآن ، كانوا فى الأصل رجالا صالحين فلما ماتوا طفق الناس يتبركون بهم ، ويحتفلون حـــول قبورهم ثم مع طول الزمن جرهم الأمر الى تصوير صورهم وعبادتهم ، والطلب منهم ، والاستشفاع بهم ، كما يفعل مسلمو هذا الزمان بصالحيهم قائلين : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، كما بين الله ذلك فى القرآن ، ولذلك امر الرسول أصحابه أن لا يدعوا قبرا مشرفا الا سووه بالأرض ، ولا تمثالا الا طمسوه ، واما عدنا الاستشفاع بالاموات والتوسل بهم من المنكرات ، فلكون ذلك لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من خلفائه الراشدين ، ولا عن أحد من الائمة المجتهدين ، لا بالنبى صلى الله عليه وسلم ولا بغيره ، أى لكون ذلك من المحدثات فى الدين ، وكل محدثة فى الدين بدعة ، وكل بدعة فيه ضلالة وكل ضلالة فى النار وقد قال تعالى : « لاتغلوا فى دينكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى امرنا هذا ماليس منه فهو رد » أى باطل مردود ، وقد تقدم شرح ذلك . وقد روى فى جواز ذلك أحاديث وآثار لم يصح منها شىء كحديث الاعمى الذى رواه السدى الصغير الكذاب ، وحديث توسل آدم عليه الصلاة والسلام بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وحديث : « اذا كانت

لكم حاجة فاسألوا الله بجاهى » وحديث : « اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك » فان ذلك كله لم يصح منه شىء ، وما صح منه فى الجملة فهو من باب التوسل بالاعمال لا بالأشخاص ، وكذلك حديث اذا سألتم الله فاسألوه بجاهى فان جاهى عند الله عظيم ، كذب موضوع وقد نسب الكذابون جواز ذلك الى الامام مالك وهو كذب ، فمن اراد ان يتوسل الى رضاء الله فليتوسل بطاعة أوامر الله تعالى ، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فيما امر به وفيما نهى عنه لا باتباع الأهواء والتعبد بما لم يأذن به الله ، وأما النذر للقبور والذبح لها فشرك وكفر صريح باتفاق أئمة المسلمين وهو من العبادات التى لا يجوز فعلها الا لله .

وأما التوسل والشفاعة فقد يستعملان فى معان منها التقرب الى الله والتوسل الى مرضاته بامتثال اوامره . واجتناب منهياته ، والجهاد فى سبيله ، والتبتل اليه بالدعاء وبأنواع العبادات مع الخوف من عذابه والطمع فى رحمته . وهذا هو التوسل المأمور به فى قوله تعالى « يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » كما هو مفاد جميع التفاسير المشهورة المعتبرة ويفسره الآية الأخرى التى فى سورة الاسراء وهى قوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا » فبين تعالى فى هذه الآية ان الذين لايملكون كشف الضر عمن يدعونهم ولا تحويلا ، هم اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة بالدعاء والرجاء فى رحمته والخوف من عذابه . وقد نص المفسرون على ان المراد بذلك هم

الانبياء كعيسى وعزير فغيرهم من باب اولى لايملكون لانفسهم ولا لغيرهم شيئا . وهذا المعنى هو الذى فهمه الرسول واصحابه من الآية على ما يظهر واتبعهم على ذلك ائمة اهل السنة والجماعة ، بدليل انه لم ينقل عن احد منهم انه توسل فى امر بالاقسام على الله بحق شيء من مخلوقاته ، بل جميعهم كانوا يبتغون الى الله الوسيلة بطاعته ودعائه واستغفاره فقط . ولو فهموا من الآية غير هذا لما تأخروا عن طاعة امره . ولو فعلوا لنقل الينا كما نقل غيره من الاعمال من طريق الثقات . وما نسب اليهم من غير ذلك فغير ثابت عند الحفاظ بل هو من وضع بعض الكذابين .

ومنها ان يتوصل الانسان الى استجابة دعائه بطلب الدعاء ممن يظن انه مجاب الدعوة من الاحياء ، بان يدعو له او لغيره أو يؤمن على دعائه كما فعل عمر وأصحابه رضى الله عنهم فى الاستسقاء ، فانهم قدموا العباس فى الدعاء وصاروا يؤمنون على دعائه . وكما كان الصحابة يطلبون الدعاء والاستغفار لهم من النبى صلى الله عليه وسلم . هذا هو المشار اليه فى الآية : « ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » وقيدنا جواز ذلك بالاحياء دون الاموات ، لانه لم يرد عن أحد من الصحابة ولا عن أحد من الأئمة المشهورين فيما علمنا انه جاء الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم أو الى قبر غيره بعد موته ، وطلب منه الدعاء والاستغفار او الشفاعة . وهم اعلم بمعنى الآية وارغب من غيرهم فى الخير واحرص ممن دونهم على الطاعات ، فلو فهموا ان ذلك من الطاعات لفعلوا ولو فعلوا لبلغنا ، وحيث لم يبلغنا ذلك عن الصحابة ولا عن احد من الائمة من طريق يوثق به فالواجب

الوقوف عند الحـد . كيف وقد ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . هذا سبيل الرسول وأصحابه فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . وصيغ الدعوات المأثورة المتفق عليها كثيرة فليدع بها من شاء الدعاء ، ولا حاجة الى ارتكاب مالم يأذن به الله .

وعليه فأقول : ان الاقسام على الله تعالى فى الدعاء بشىء من مخلوقاته سواء اكان بذاته او بجاهه غير مأثور . فهو بدعة وكل بدعة فى الدين ضلالة وكل ضلالة فى النار . هذا وقد أورد بعض الكذابين أحاديث وحكايات فى جواز ذلك منسوبة الى بعض الأئمة ولكن كلها واهية لم يصح منها شىء ومن أشهر تلك الأحاديث الدائرة بين الناس وفى بعض الكتب ما رواه محمد ابن حميد الرازى عن الامام مالك انـه قال للمنصور ، ولم تصرف وجهك عنه : أى عن قبر النبى (ص) وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام يوم القيامة ، بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله : ومحمد بن حميد هذا المذكور فى سند هذه الحكاية هو احد أبطـال الكذب المشهورين . وقال فيه صالح بن الأسدى : ما رأيت أحدا أجرا على الله منه ، وأحذق بالكذب ، وهذه الحكاية مكذوبة كما قال الحفاظ . ومنها حديث الأعمى الذى رواه السندى الصغير . وهو أيضا أحد المتهمين بالكذب ، المردودين عند الحفاظ . ومنها حديث توسل آدم بالنبى (ص) وهو كذب موضوع كما بينه الحفـاظ ، فليتق الله العلماء والمفتون ، وليقولوا قولا سديدا . وليتنكبوا بالعامة عن طريق الوثنية ومظانها فان من حام حول الحمى يوشـك أن يقـع فيـه ومن استبرا من الشبهات فقد استبرأ لدينه ، ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ان الاستعانة فى قضاء الحوائج ودفع الشرور بالاموات أمر مخالف لسنة الله التى أناط بها أمور الكون ، وجعل ذلك سببا لدفع المضار أو جلب المصالح . غير معقول ولا مقبول عند ذى لب سليم ولم يقل به احد من العقلاء ، بل هو امر ينبذه العقل ويرفضه الشرع ، وشنع عليه الكتاب والسنة أشد التشنيع فى عشرات من آيات الكتاب العزيز ، الموضحة بعشرات من أحاديث الرسول الكريم . ولم ينقل عن أحد من الصحابة ولا عن أحد من تابعيهم ولا عن أحد من أئمة الدين المشهورين بطريق يوثق به أنه كان يطلب من ميت أو أنه كان يبيح ذلك ، ولا أنهم كانوا يقدمون الأموال والشموع والزيوت لتسريج المقابر ، أو رفع القباب والمقاصر عليها : يعلق كثير من الجهال ـ وبالخصوص الذين ينتمون الى أهل الطرق آمالهم فى دفع المضار وجلب المصالح ، بشيوخهم أحياء وأمواتا . كما كان يفعل الجاهلية بأصنامهم ومعبوديهم ويدعونهم عند كل حركة وسكون وقيام وقعود ، بحجة أنهم أهل كرامات وأنهم أهل تصرف فى الأكوان ، أو أنهم شفعاء يتوسطون فى قضاء الحوائج بينهم وبين الله ، وهذا الاعتقاد وهذا العمل هو الذى أرسل الله الرسل لمحاربته وهو صرح الشيطان الذى هدمه الاسلام ، وليس لمرتكبى هذه الفظائع حجة الا ما يتناقلونه من الحكايات الخرافية والكرامات المختلقة والأوهام الفاسدة . وقد يمدهم الشيطان ويفتح لهم أبواب الضلال باظهار بعض الخبالات والتظاهر بصورة بعض المعتقدين ، وقضاء بعض الحوائج ليجعلهم تحت سلطانه ، ويختم على قلوبهم بختمه ليكونوا مشركين مع دعوى الايمان ويعبدوه بما يخترعه لهم من أنواع العبادات الفاسدة ، ويكذبوا قولهم لربهم فى صلاتهم : اياك نعبد واياك نستعين

بأفعالهم المناقضة لما يقولون : يقرءون صباح مساء قوله تعالى : « فلا تدع مع الله احدا » وقوله تعالى : « أدعوا الله مخلصين له الدين » . وقوله تعالى : « والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون » ويسمعون أطراف النهار قول الرسول الأمين : « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله » ثم تراهم راكعين ساجدين حول القبور مستغيثين بأهلها رافعين اصواتهم بندائهم بغير حياء ولا خجل . أو جثاة حول القبور ناكسي رءوسهم قانتين خاشعين يراقبون ارواح الاموات أو الاحياء كأنهم خشب مسندة ، أو حجارة منصوبة : يأمر الله رسوله الكريم أن يتلو على الناس قوله الاسمى « قل لا املك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله » وقوله تعالى : « ليس لك من الأمر شىء » فيقرءونه بكل صوت عال ثم يعتقدون بعد ذلك أن للشيخ فلان تصرفا فى العالم ، وقدرة على النفع والضر ، بعد موته ، وتمكنا من اغاثة من يدعوه من أقصى المشرق والمغرب . ما هذا الجنون ؟ وما هذا الخبال ؟ وما هذه الأدمغة المنكوسة المعكوسة . يموت الرجل بعد أن يفعل جميع ما فى وسعه فى طلب العافية ، بعد أن يلتمس كل سبب لانقاذ نفسه من براثن الموت . وبعد ما يعجز كل طبيب عن علاجه . فيحمله أصحابه فوق أكتافهم ويدفنون جيفته خيفة أن يؤذى الناس بعفونته . ويوارونه بقناطير من التراب ثم يرجعون الى هذا الميت الذى لم يقدر حتى على نقل جيفته من البيت الى القبر فيطلبون منه الرزق والعافية والولد . ويستغيثون به عند الشدائد ، فما هذه العقول الضالة ؟ وما هذه الأعمال السخيفة التى تأنف من مثلها البهائم ؟ الحق انهم كما قال تعالى فى سورة الأعراف : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم

اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون » .

يظن كثير من الجهال أن العبادة هى الصلاة والزكاة والصوم والحج فقط ، مع ان جميع المشركين والكفار الذين ارسل الله الرسل لمحاربتهم ، لم يكن احد منهم استحق العذاب لكونه ترك صلاة كصلاتنا فرضت عليه . ولا لكونه ترك صوما كصومنا فرض عليه . ولم يكن أحد منهم منكرا لوجود الله ولا شاكا فى قدرته ، بل كلهم كما حكى الله عنهم كانوا يقرون بأن الله هو خالق الكون ومدبره . هو الذى يرزق ويشقى ويسعد ، وهو الذى ينزل الغيث وخالق كل شىء . وانما حكم الله عليهم بالعذاب الأبدى لكونهم كانوا تركوا التوجه الى الله المسمى بالصلاة فى بعض الآيات ، وتوجهوا لغيره او اشركوا غيره فى التوجه اليه فى قضاء الحوائج والرهبة منه . ولكونهم كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى من البشر والأوثان قائلين : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » كما فى سورة الزمر . قائلين : هم شفعاؤنا عند الله . قال تعالى حكاية عن حالهم وعقائدهم فى سورة يونس : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات والأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » وقال تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله قل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون » وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات

السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون .
قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم
تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون » .

فيظهر من هذه الآيات تمام الظهور ان المشركين كانوا
يقرون بأن الله هو الذى يجير ولا يجار عليه وانه هو الذى
ينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها وانه الذى
بيده ملكوت كل شيء وانهم كانوا يدعون من يدعونه بدعوى
الشفاعة او التوسل فقط ، وان الله ما حكم عليهم بالعذاب
الابدى الا لكونهم لم يتقوا من الشرك ودعوة غير الله معه ،
وانه حكم عليهم بالضلال بقوله تعالى : « فذلكم الله ربكم
الحق فماذا بعد الحق الا الضلال . فانى تصرفون» فعباد
القبور ودعاة الاموات والاولياء عند الشدائد مشركون لاحظ
لهم فى الآخرة ولا تنفعهم أعمالهم الظاهرة ما داموا متلبسين
بمثل هذا الشرك ، مع العلم بأنه شرك بقطع النظر عن
اتخذوهم اربابا من دون الله فانهم لا يحاسبون بأعمال
هؤلاء حول قبورهم الا اذا مهدوا السبيل لذلك ، وأحبوا أن
يكونوا مدعوين مع الله لتحصيل الجاه لأنفسهم ، ولاولادهم
من بعدهم . قال الله تعالى : « يوم يحشرهم وما يعبدون
من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا
السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك
من اولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا
قوما بورا » ثم ان هؤلاء اذا سألتهم : هل انتم مشركون
لا يعترف احد منهم بأنه مشرك ، بل يدعى انه موحد ، ولكن
هذه الدعوى التى يناقضها الفعل لا تنفعهم فى الآخرة بل ربما
يكون أشد عذابا لمخادعته وتناقض أعماله ، قال تعالى :
« ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا اين شركاؤكم
الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا

ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

هذا ومن المعلوم ان كثيرا من هؤلاء يعيبون عباد الاصنام ولكنهم لا يعلمون ما هى الاصنام والاوثان ، ولا ما هو التأليه والعبادة ، ولذلك لا يعلمون أن الدعاء هو العبادة كما قال الرسول ، ولا يعدون الذبح للقبور والنذر لهم من العبادات ، ولا يعلمون ان الاستغاثة من العبادات ولا يعدون قبور الاولياء الذين يطلبون من أهلها قضاء الحوائج من الاوثان ، مع ان الصنم او الوثن هو كل ما يعبد من دون الله بأى نوع من انواع العبادات ، وان خصصه العرف بما لا حياة له ، والذبح والدعاء والاستغاثة من العبادات . بل قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الدعاء هو العبادة » والشر كل الشر على الامم الاسلامية — بلاد حملة العمائم ومشائخ الطرق ، وحكام السوء الذين لاهم لهم الا تحصيل الجاه والملك وحطام الدنيا — وأشر منهم هؤلاء الدجالون الذين يبكون فى المساجد والمحافل ، الذين باعوا آخرتهم ودينهم بالجاه ، وخرجوا عن عقولهم لفرط العناد . واتخذوا آلهتهم أهواءهم وأضلهم الله على علم !.

ان الشارع صلوات الله وسلامه عليه اباح زيارة القبور لتذكر الآخرة والاعتبار بمناظرها المفزعة ، لا لنطلب شيئا من الأموات أو لنقسم على الله بجاههم أو نتوسل الى الله فى قضاء حوائجنا بهم ، ولذلك ابيحت زيارة قبور الكفار والفساق كما ابيحت زيارة قبور المسلمين لان تذكر الآخرة والاعتبار والموعظة برؤية القبور يحصل بزيارة اى قبر . وقد جزم بجواز زيارة قبور الكفار جمهور العلماء وان خالفهم فى ذلك القليل .

قال النووى : وبالجواز قطع الجمهــور . وتقدم أنه لم يثبت فى الشرع جواز الاستشفاع بمعنى الاقسام على الله تعالى فى قضاء حاجة ، أو دفع ضرر بجاه أحد أو بذات أحد من المخلوقات ، لا قولا ولا فعلا . وأما الاستشفاع بمعنى ان تطلب من احد تظن فيه الخير واستجابة الدعاء من الاحياء ان يدعو لك او لغيرك بالخير ، كما فعل عمر فى الاستسقاء وكما فعل معاوية فجائز ، وكذلك ان تطلب من احد الاحياء أن يستغفر لك أى يدعو لك بالمغفرة ، كما دل عليه قوله تعالى : « ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » وقوله تعالى : « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » . فقد روى كما علمت بشرط ان يكون المطلوب له المغفرة مؤمنا موحدا . واما غير المؤمن الموحد فلا . لقوله تعالى فى سورة التوبة : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ولقوله تعالى : « ماكان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ماتبين لهم انهم اصحاب الجحيم » ولما رواه البخارى بسنده الى النبى (صلى الله) انه قال : يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم : يا رب أنت وعدتنى ألا تخزينى يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ، فيقول الله عز وجل : انى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال له انظر ماتحت رجليك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخــذ بقوائمه فيلقى فى النار (الذيخ ذكر الضباع) وقــد روى مســلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استأذنت ربى ان استغفر لامى فلم يأذن لى ، واستأذنته فى ان ازور

قبرها فأذن لى فزوروا القبور فانها نذكر الموت » واما طلب الشفاعة أو الاستغفار أو الدعاء من الأموات فلم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا عن احد من الصحابة ولا عن احد الائمة بوجه صحيح . وبما ان الغلو فى الدين غير جائز فالواجب أن نقف عند الحد الذى وقف عنده الشارع ، ونتبع ما ورد عنه بدون زيادة ولا نقص . قال تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » وقال تعالى : « تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .

وأما الشفاعة فى الآخرة أى طلب المغفرة من الله تعالى لمن أذن الله أن يطلب له المغفرة من المؤمنين فجائز ، وقد ثبت عن النبى عليه السلام فى الأخبار الصحيحة . ففى صحيح البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه انه قال : قلت : يا رسول الله أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال : اسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه . وقد روى مسلم فى صحيحه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته ، وانى اختبأت دعوتى شفاعتى يوم القيامة . فهى نائلة ان شاء الله تعالى من مات من امتى لايشرك بالله شيئا » . وفى السنن عن عوف بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتانى آت من عند ربى فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة ، وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئا » . وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آتى تحت العرش فأخر لله ساجدا فيفتح على بمحامد لا أحصيها الآن فيدعنى ما شاء الله ان يدعنى ، ثم يقال : يا محمد ارفع

رأسك وقل يسمع ، واشفع تشفع ، فيحد لى حدا ثم أدخلهم الجنة ثم اعود فذكر اربع مرات » . والاحاديث فى هذا الباب كثيرة ولكن هذه الشفاعة لايكون بها انقاذ احد حكم الله عليه بالعذاب حكما مبرما وليس فيها تعقب لحكم الله فالله يحكم لا معقب لحكمه . ولا يكون بسببها رجوع من الله عن ارادته التى سبقت فى تعذيب ذلك المذنب . وانما الشفاعة تكون لمن استحق العذاب ولم تسبق ارادته تعالى على مؤاخذته بذنبه وتعذيبه بجريمته . فالحكم بالاستحقاق غير الحكم بالتعذيب . وبما أن الشفاعة للعبد لا تكون الا من بعد اذن الله ورضائه فلا تأثير لها فى الحقيقة ، وانما هى سبب من الأسباب جعلها الله سلما يخرج به من شاء اخراجه من هاوية العذاب ، رحمة منه وفضلا . وتشريفا لمن جعله سببا لذلك فيما حدده له . ولذلك قال تعالى : « قل لله الشفاعة جميعا » فالانبياء ومن شرفهم الله بذلك المقام من اتباعهم لا يشفعون لكل من يحبونه او يريدون الشفاعة له بل لمن اذن الله لهم فيه بالشفاعة فقط قال تعالى فى سورة الانبياء : « يعلم مابين ايديهم وماخلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » وقال تعالى فى سورة البقرة « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون : « وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون » هذه هى الشفاعة التى تنفع فى الآخرة . واما من تجرأ على الشفاعة لاحد بدون أن يأذن الله له فيها على فرض وجود ذلك ، فشفاعته لاتنفع ولا تغنى شيئا . وقال تعالى فى سـورة النجم : « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » وقال تعالى فى سورة البقرة : « واتقو يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » ومن يعتقد أن الشفاعة تنقض حكم

الله أو تنجى من أراد الله تعذيبه من النار يكفر والعياذ بالله
تعالى . هذا وتبين مما تقدم أن الشفاعة فى الآخرة جائزة
لمن أذن الله له فى ذلك فيما حد له فيه تنال من أراد الله له
ذلك من المؤمنين الموحدين الذين لا يدعون مع الله أحدا .

وأما المشركون الذين يدعون الأموات ويجعلونهم وسائط
فى قضاء حوائجهم أو يستغيثون فى مهماتهم بأرواح الأنبياء
والأولياء والملائكة وغيرهم من المخلوقات فلا تنالهم الشفاعة
قطعا ، لانهم مشركون . ولا تنال الشفاعة مشركا كما نص
على ذلك الكتاب والسنة . هذا ما احتمله المقام ومن أراد
المزيد يزاد . والله ولى التوفيق .

****

محتويات الكتاب

دار العلوم للطباعة

القاهرة ، ٨ شارع حسين حجازى (القصر العينى)

ت ، ٣٤٧٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨/٤٩٣٦

الترقيم الدولى ٨ — ٤٤ — ٧٣٠١ — ١٩٧٧

العلامة المؤلف فى سطور

- ولد سنة ١٢٩٢ هـ ببلدة ادفو بصعيد مصر
- ينتمى الى قبيـلة الجوابرة نسبة الى جابر بن عبد الله الأنصارى .
- انتقل مع قبيلته الى السودان ايام السلطان سليم
- تنقل فى المعاهد الدينية بالسودان ، وحفظ القرآن الكريم على قراءة نافع ، ودرس الفقه والتوحيد ..
- رحل سنة ١٣١٤ هـ الى الحجاز واقام بالمدينة اربـع سنوات مجدا فى طلب العلوم الشرعية والعربية ..
- اختار مكة ونال الشهادة العالمية وأنشأ هنـاك مدرسة أهلية ، قام بالتدريس فيها وفى الحرم المكى ..
- اختير سنة ١٣٢٩ هـ لادارة التعليم فى مدرسة جمعية خير فى بتافيا بأندونيسيا ، واستقال سنة ١٣٣٢ بسبب فتوى صدرت منه أقامت عليه ثائرة العلويين ، أفتى بصحة زواج العلوية من غير العلوية ..
- أسهم فى انشاء جمعية الاصلاح والارشاد فى بتافيا ، وكان القائم بادارة التعليم فى مدرسة الارشاد التابعة لها ..